

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأنقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

أما بعد: فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر^(١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار. وهما أيضًا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سعى نفسه صبورًا وشكورًا، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشرط الأول: في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

بيانات فضيلة الصبر:

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعًا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ لِمَا صَبَرْتِ﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَوَقَّمتْ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾

(١) حديث «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف.

[القصص: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿وَصَابِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَابِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ»^(١) علي ما سيأتي وجه كونه نصفًا وقال ﷺ: «مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمُ الْيَقِينَ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَٰنْ تَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُؤَافِتَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلٍ جَمِيعِكُمْ وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكَرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنْكَرُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفِيرَ يَكْمَالِ ثَوَابِهِ ثُمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٦]»^(٢)، الآية. وروى جابر أنه سأل ﷺ عن الإيمان فقال: «الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ»^(٣)، وقال أيضًا: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»^(٤)، وسئل مرة: «ما الإيمان؟ فقال: الصبر»^(٥) وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحج عَرَفَةُ»^(٦) معناه معظم الحج عرفة وقال أيضًا ﷺ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ عَلَيْهِ النَّفْسُ»^(٧) وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور. وفي حديث عطاء

(١) حديث «الصبر نصف الإيمان». أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم. [انظر صحيح الترغيب: ٣٣٩٧، وقال الألباني: صحيح موقوف عن علقمة، وضعيف الجامع: ٣٥٣٦، وضعف رفعه عن ابن مسعود].

(٢) حديث «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر». بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله.

(٣) صحيح: حديث جابر: سئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة». أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده. [انظر السلسلة الصحيحة: ٥٥٤].

(٤) حديث «الصبر كنز من كنوز الجنة». غريب لم أجده.

(٥) ضعيف جداً: حديث: سئل مرة عن الإيمان فقال «الصبر». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٣٥٣٥].

(٦) صحيح: حديث «الحج عرفة». تقدم في الحج. [الترمذي: ٨٨٩، والنسائي: ٣٠١٦، وانظر المشكاة: ٢٧١٤].

(٧) حديث «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفس». لا أصل له مرفوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»^(١)، وقال ﷺ: «في الصبر على ما تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ»^(٢)، وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون.

وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين»^(٣)، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر.

وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له. وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العبدان ونعمت العلاوة للصابرين؛ يعني بالعبدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى. والعلاوة ما يحمل فوق العبدلين على البعير، وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَقَمُّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] بكى وقال: واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف، فلنذكر حقيقة الصبر ومعناه وبالله التوفيق.

بيانات حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث

(١) حديث عطاء عن ابن عباس: دخل على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله. أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

(٢) صحيح: حديث «في الصبر على ما تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم. [الترمذي: ٢٥٠٧] عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ يرى شعبة أنه ابن عمر، وانظر صحيح الترمذي.

(٣) ضعيف: حديث «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً». أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقيلي. [انظر ضعيف الجامع: ٤٨٣٢].

الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى.

واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل — كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في قواعد العقائد — وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالشجرة يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة. أما في البهائم فلنقصانها. وأما في الملائكة فلكمالها.

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة عليهم السلام؛ فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان؛ فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوة الصبر البتة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا لجند الهوى كما في البهائم، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيد. وأما الدواء النافع مع كونه مضرًا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر. فلنسب هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً،

ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعرفة هذا القتال قلب العبد.

ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين. فإذا ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة.

وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة.

فإذا قوي يقينه - أعني المعرفة التي تسمى إيماناً وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى - قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة.

وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين. وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوي لم يخف عليك أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبي الدست، الذي ينبغي أن يكون مسلماً له. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة.

وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيئة، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة.

وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراماً كاتبين. أما الكرام فلا تتفاد العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة، وأما الكاتبون فلا إثباتهما الحسنات والسيئات، وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملوك لا من عالم الشهادة، وكل شيء من عالم الملوك لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت، إذ قال ﷺ: «من مات فقد

قامت قيامته»^(١)، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وفيها يقال: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمراً لا آحاداً. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى. ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصلته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك أسماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سماءك، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كوّرت الشمس تكويراً، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكداراً، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقاً، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيراً، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت حتى ألقت ما فيها وتخلت، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك. فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتشرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعشى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره، ومن انشق رأسه فقد انشقت

(١) ضعيف: حديث من مات فقد قامت قيامته. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ١١٦٦].

سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال.

واعلم أن هذه الصغرى وإن طوّلنا في وصفها فإننا لم نذكر عشرين أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإن للإنسان ولادتين: إحداهما: الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم، بل أوسع وأعظم. فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت. والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال.

فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء: «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعْظَا»^(١) أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ»^(٢)، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون؟ فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا

(١) ضعيف جداً: حديث «كفى بالموت واعظاً». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٠٢].

(٢) ضعيف: حديث «اللهم هون على محمد سكرات الموت». أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ «اللهم أعني على سكرات الموت». [انظر الترمذي: ٩٧٨، وابن ماجه: ١٦٢٣، وانظر ضعيف الترمذي].

﴿يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١] أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿وَلَا يَكُلُّ لَمَّا جُمِعَ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢] ولكن ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦] وذلك لأننا ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩٠-٩١].

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول: قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئاً على الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض.

ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدرج إلى سنّ البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزًا ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق. إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار. أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب.

فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي. فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصدّيقين، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ»^(١)، وأشار إلى أصابعه الكريمتين ﷺ.

بواب كورت الصبر نصف الإيمانات:

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعًا، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفًا وسبعين بابًا.

واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات.

ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين:

(١) صحيح: حديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين» أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم. [البخاري: ٥٣٠٤].

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعًا.

فيكون للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين.

والآخر: الصبر. والمراد باليقين. المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين.

والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل.

فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: «مَنْ أَقَلَّ مَا أُوتِيْتُمْ الْيَقِيْنُ وَعَزِيْمَةُ الصَّبْرِ...» الحديث إلى آخره.

الاعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر.

فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول.

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر. وقد يرفع أيضًا إلى رسول الله ﷺ.

ولما كان الصبر صبرًا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيق والغضب للهروب من المؤلم، وكان الصوم صبرًا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب: قال ﷺ بهذا الاعتبار: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعًا، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان.

فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان: والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيات الأساس التي تتعبد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر:

اعلم أن الصبر ضربان: أحدهما: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها.

وهو إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها.

وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة.

وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيّات الطبع

ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميّه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر.

فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها. وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر. وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلمًا ويضاده التذمر. وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتماناً. وإن كان عن فضول العيش سمي زهدًا ويضاده الحرص. وإن كان صبراً على قدر يسير من الحفظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة»^(١)، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي المصيبة. ﴿وَالْفُرَّاءِ﴾ أي الفقر ﴿وَبَيْنَ أَهْلَيْنِ﴾ أي المحاربة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف مصالقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلاحظ المعاني أولاً فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني.

فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع. ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَنُتَشَىٰ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف:
اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

(١) صحيح: حديث «الحج عرفة». أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج. [الترمذي: ٨٨٩، والنسائي: ٣٠١٦، وابن ماجه: ٣٠١٥، وانظر المشكاة: ٢٧١٤].

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر.

والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [نصحت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنّت نفوسهم على مقتضى باعث الدين.

وإياهم ينادي المنادي ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقعتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله.

واليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْآحْيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠] وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمني وهو غاية الحمق كما قال ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسُهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّىٰ عَلَى اللَّهِ (١)»، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي.

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه تسخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه.

فهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس

(١) ضعيف : حديث «الكيس من دان نفسه». تقدم في ذم الغرور. [الترمذي: ٢٤٥٩، وابن ماجه: ٢٤٦٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٥٩].

الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنعمته لأن الهوى أبغض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] هذا باعتبار القوة والضعف. ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى.

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المدبر يقيئاً، ولذلك قيل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام
وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تعامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر.

وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَتَىٰ وَالْفَتْحَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۖ فَسَيَرْزُقْهُ الْيُسْرَىٰ ۖ﴾ [البلد: ٥-٧] ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإن الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين.

فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وبعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلبت باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورش ذلك مقام الرضا — كما سيأتي في كتاب الرضا — فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال ﷺ: «اعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ففِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كِتَاباً» (١).

(١) حديث «اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم. [أحمد: ٢٨٠٠ عن ابن عباس، وليس فيه «اعبد الله على الرضا» ولم أقف عليه عند الترمذي].

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات :

أولها : ترك الشهوة وهذه درجة التائبين .

وثانيها : الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين .

وثالثها : المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين .

وسنبين في كتاب المحبة أنّ مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأنّ هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أنّ الصبر أيضًا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نفل .

والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكنًا . وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أنّ جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيانات مظان الصبر إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال :

اعلم أنّ جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما : هو الذي يوافق هواه .

والآخر : هو الذي لا يوافق بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر .

النوع الأول : ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا .

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطنى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق .

وقال سهل : الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال .

والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المناقصون: ٩] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال ﷺ: «الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبُتَةٌ مَحْزَنَةٌ» (١).

ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «صَدَقَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾» [التغابن: ١٥] إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَمْ أَتْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتَهُ» (٢)، ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب، وأن يعى حقوق الله في ماله بالإففاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر — كما سيأتي — وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاها غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، فهذا عظم فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان:

الضرب الأول: الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإن استشاطته وغِيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضممار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

(١) صحيح: حديث «الولد مجبنة مبخلة محزنة». أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم. [ابن ماجه: ٣٦٦٨، وانظر صحيح الجامع: ١٩٩٠].

(٢) صحيح: حديث «لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر». أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وأما الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب. [أبو داود: ١١٠٩، والترمذي: ٣٧٧٤، وابن ماجه: ٣٦٠٠، والنسائي: ١٤١٣، وانظر صحيح أبي داود].

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة.

ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة. ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد.

فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء

ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء.

وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد

النفس. وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما

نوى» (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ولهذا قدم الله

تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [مؤد: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق

آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى

الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ﴾ [الزَّيْنِ

صَبَرُوا] [المنكوت: ٥٨-٥٩] أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة

والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطئ عمله ويحبط أثره كما قال تعالى:

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾

[البقرة: ٢٦٤] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً وقد جمعهما الله

تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل هو

الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج

إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع

المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال: «المُهَاجِرُ

مَنْ هَجَرَ السُّوءَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ» (٢). والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

(١) صحيح: حديث «إنما الأعمال بالنيات». متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم. [البخاري: ١، ومسلم: ١٩٠٧].

(٢) صحيح: حديث «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه». أخرجه ابن ماجه بالسطر الأول والنسائي في الكبرى بالسطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدما. [انظر

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتييسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً.

وأنواع المزعج المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإضرار والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس.

فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير، والأخرى إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أمر به من العبودية. وللاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحتها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأتس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنى^(١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوسواس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

القسم الثاني : ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أذى بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة.

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى : ﴿وَلَنَصَبِرَنَّ عَلَى مَا ءَازَبْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقسم رسول الله ﷺ مرة مآلاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله،

فأخبر به رسول الله ﷺ فاحمرت وجنتاه ثم قال: «يَزَحْمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْمُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [١٧] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَسْمُكَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي تصبروا عن المكافاة.

ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال ﷺ «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(٢)، ورأيت في الإنجيل: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين.

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء.

وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم.

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس. ولذلك قال ﷺ: «أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا»^(٣)،

(١) صحيح: حديث: قسم رسول الله ﷺ مرة مالا فقال بعض الأعراب: متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم. [البخاري: ٦٠٥٩، ومسلم: ١٠٦٢].

(٢) صحيح لغيره: حديث «صل من قطعك». تقدم. [أحمد: ١٦٨٨٣ عن عتبة بن عامر، وانظر صحيح الترغيب: ٢٥٣٦].

(٣) حسن: حديث «أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيَّ مَصَائِبَ الدُّنْيَا». أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم

فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره؟ وقال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرِ جَمِيلٍ اسْتَحَبَّتْ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا»^(١)، وقال ﷺ: «انْتَظِرِ الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عِبَادَةَ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] اللَّهُمَّ ارْجُزْنِي بِمُصِيبَتِي وَأَغِقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ»^(٣)، وقال أنس: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتِي قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى: جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ»^(٤)، وقال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عَوَادِهِ أَبَدْتُ لَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي»^(٥)، وقال داود عليه السلام: يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدًا.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات. [الترمذي: ٣٥٠٢، وانظر صحيح الترمذي].

(١) ضعيف: حديث «قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل». أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٤٠٤٤].

(٢) حديث «انتظار الفرج بالصبر عبادة». [يلفظ «الصبر» انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٢، وقال الألباني: موضوع، وبولونه انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٣، وقال الألباني: ضعيف جداً] أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله «بالصبر» وكذلك رواه أبو سعيد المالكيني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود «أفضل العبادة انتظار الفرج» [هند الترمذي: ٣٥٧٧، وانظر ضعيف الترغيب: ١٠١٥، وقال الألباني: ضعيف جداً] وتقدم في الدعوات.

(٣) صحيح: حديث «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] اللهم أجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك». أخرجه مسلم من حديث أم سلمة. [مسلم: ٩١٨].

(٤) حديث أنس «إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمته». [انظر ضعيف الترغيب، وقال الألباني: منكر] أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ «إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيته فصبر عوضته منهما الجنة» [هند البخاري: ٥٦٥٣] رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ «إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثواباً دون الجنة» قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال «وإن كانت واحدة» [ولم أقف عليه] وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف.

(٥) موضوع: حديث «يقول الله: إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحماً خيراً من لحمه». أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة. [انظر السلسلة الضعيفة: ٦٩١].

بَغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠] وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته. وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ويقال إن امرأة فتح الموصل عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجد؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه.

وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

وقال نبينا ﷺ «مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ» (١)، ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفي كفه صرة فاقتطعها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال: بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني.

وروي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جرّني قليلاً إلى العدو واجعل الماء في الترمس فإنني صائم فإن عشت إلى الليل شربته.

فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره؟ فهو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا يتكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلية تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان ودية فاسترجعت.

كما روي عن الرميضاء أم سليم رحمها الله، أنها قالت: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا

(١) حديث «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك». لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال «من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

تعجب من جيراننا قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»^(١)، قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرَّمِيصَاءِ امْرَأَةٍ أَبِي طَلْحَةَ» وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَزَحْمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءُ» بل ذلك أيضًا لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه — وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى — وكتب ابن أبي نجيع يعزي بعض الخلفاء: إِنَّ أَحَقَّ مِنْ عَرَفَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا أَخَذَ مِنْهُ مِنْ عَظَمِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُ فِيمَا أَبْقَاهُ لَهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَاضِي قَبْلَكَ هُوَ الْبَاقِي لَكَ وَالْبَاقِي بَعْدَكَ هُوَ الْمَاجُورُ فَيْكَ.

واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه. فإذا نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب.

وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإن الذي كفى الشهوات كلها واعتزل واحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً، وعن الصبر وعن وساوس الشيطان باطناً.

فإن الاحتلاج الخواطر لا يسكن.

وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووساوسه في المباحات مقصوراً عليه، ولا يكون ذلك غالباً، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع كل من

(١) حديث الرميصة أم سليم: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقامت فسجنته في ناحية البيت. أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف. [حديث الرميصة وهو عند البخاري: ٥٤٧٠، ومسلم: ٢١٤٤ عن أنس].

تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار.

وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبيعتها.

وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده.

ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه — فهو روح السجود — وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح.

ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك، كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقلب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدرح فإنك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ»^(١)، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزوج أفراده أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده، فلا تزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئاً فشيئاً على الاتصال.

فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة، فإذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة. نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج — حين كان يصلب — وقد سئل عن التصرف ما هو؟ فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك. فإذا حققة الصبر وكمالها: الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت.

نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل.

فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تتركب الأدوية لأفراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها. واستيفاء ذلك مما يطول ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة.

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة «فنقول» قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فاما باعث الشهوة فنسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة — من حيث نوعها

(١) حديث «إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ». لم أجده.

ومن حيث كثرتها — فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، قال رسول الله ﷺ: «النُّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ»^(١)، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رمية.

فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتبهه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه: وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يجمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ»^(٢).

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام: يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته.

الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها.

والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب.

وأما تقريرة باعث الدين فإنما تكررت بطريقتين:

أحدهما: إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبدا الدهر. ومن أسلم خسيئاً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال.

وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي قوى باعث الدين وهيجه تهيجاً شديداً وإن ضعف ضعفه. وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو

(١) ضعيف جداً: حديث «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس». تقدم غير مرة. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٩٤].

(٢) حديث «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم». تقدم في النكاح. [الترمذي: ١٠٨١، والنسائي: ٢٢٣٩، وانظر صحيح الترمذي وهو عند البخاري: ٥٠٦٦، ومسلم: ١٤٠٠ بلفظ قريب عن ابن مسعود أيضاً].

المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أتى الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجًا قليلًا قليلًا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجريء عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين. وبالجمله فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والبطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأول . يضاهي أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعد به بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَأَنكُمْ إِنَّا لَنَ الْمُفْرِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]. والثاني : يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجريء عليه وتقوى فيه منته.

فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عوّذ نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفائه، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وأثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب.

وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم همًا واحدًا وهو الله تعالى.

ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة: من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإبذاء من إنسان وطغيان من مخالط، إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة.

فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

وأما النوع الثاني : فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضًا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه.

ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق.

فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين.

وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامٍ ذَهَرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الدريات: ٢٢] وهذا من أعلى أنواع الرزق.

والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق. فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يخلي سنة عن مطر، فكذلك قلما تخلو سنة شهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة، كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب.

بحكم تقدير الله تعالى لاستدرا رحمته حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرا أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرا قطرات الماء واستجرار الغيوم في أقطار الجبال والبحار، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابًا بينك وبينها، فلا تحتاج إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب.

وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض

عنها. ولكونه حاضراً في القلب ومنسياً بالشغل عنه سمي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [العنبر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْرَأُ الْفُرْمَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] فهذا هو علاج الصبر عن الوسوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب ثم شدّة هجران الخلق. وأشبه العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه.

فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمر الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وليس القلب مذموم على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقبح له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر.

فأضله وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه.

وعزاً لا ذل فيه وأمناً لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالاً لا نقصان فيه؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية.

وليس مذموماً على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له. وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة.

ولكن الملك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام وملحق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل... وقد خلق الإنسان عجباً راعباً في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة — التي في طبعه — فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة المحقق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال: ﴿وَالْأَحْمَقُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمْنَى﴾ فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه.

ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة. فعبر عن المخذولين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُخَيِّبُونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُخَيِّبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ

تَوَكَّلْ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ بُرِّدَ إِلَّا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿النجم: ٢٩-٣٠﴾ .

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْذَنُونَ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] .

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة.

أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها.

وأما ملك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزاً لا ذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلهم بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان، ولعلهم بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضي العمر ﴿حَتَّىٰ إِنَّا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَثْنِهَا أَتْمَرْنَا لِنَاءً أَوْ تَهَارَا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْرَ بِالْأَمْثِلِ﴾ [يونس: ٢٤] فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥] والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصد عنه.

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً.

وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسحوراً مثل البهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة أخذاً بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً ومثل هذا هل يكون إلا منكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد: هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي. فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والذين وفقوا للاشتداد

على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بد وأن يضيف إليه العمل.
وعمله في ثلاثة أمور:

أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أََرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

الثاني: أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزی الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده. فلا معنى للمعالجة إلا المضادة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداءً بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ وَلَا تُبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^(١)، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادُّهُ يَغْلِبُهُ»^(٢).

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربح المهلكات، فاتخذة دستوراً لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه، فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعلم

(١) حسن: حديث «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق». أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد. [أحمد: ٢٧٣١٨، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٤٦].

(٢) صحيح: حديث «لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه». تقدم فيه. [انظر السلسلة الصحيحة: ١١٦١].

في الابتداء قهراً. فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضاً:

الصبرُ يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان:

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه.

الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر:

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [المنكبات: ٤٥] فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين: ﴿لَأَقْذَنَّ لَهُمْ سِرَظَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قيل هو طريق الشكر، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبا: ١٣] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيكَمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [النوبة: ٢٨] وقال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ

شَاءَ ﴿الأنعام: ٤١﴾ وقال: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] وقال: ﴿وَيَقْدِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥] وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقال: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(١)، وروى عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجيباً؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في لحافي - حتى مس جلدي جلده ثم قال «يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي» قالت: قلت إني أحب قربك لكنني أوتر هواك فأذنت له، فقام إلى قرية ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما ييكلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ال عمران: ١٩٠] الآية»^(٢).

وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً.

وإلى هذا السر يشير ما روي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغيرة يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] فأنا أبكي من خوفه، فسأله أن يجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال: لم تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقُمْ الْحَمَادُونَ فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِيَوَاءَ فَهَذَا خَلُودُ الْجَنَّةِ» قيل: ومن الحمادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كل

(١) صحيح: حديث «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ». علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف. [ذكره البخاري تعليقاً عقب حديث: ٥٤٦٠، وهو عند الترمذي: ٢٤٨٦، وابن ماجه: ١٧٦٤ من أبي هريرة، وابن ماجه: ١٧٦٥ من سنان بن الأسلمي، وانظر صحيح الترمذي].

(٢) حديث عطاء: دخلت على عائشة فقلت لها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجيباً؟ [مسلم: ٢٨٢٠ من عائشة] أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأي أمره لم يكن عجيباً. وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا على آخر الحديث. [الحديث انظر صحيح الترمذي: ١٤٦٨، وحسنه الألباني، وآخره دون ذكر «ولم لا أفعل...» عند مسلم: ٢٨٢٠].

حال»^(١)، وفي لفظ آخر: «الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» وقال ﷺ: «الْحَمْدُ رِذَاءُ الرَّحْمَنِ»^(٢)، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - وأوحى الله تعالى أيضًا في صفة الصابرين: أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إلي أزيدهم. ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: «لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا»^(٣)، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلًا من المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

بيان صدق الشكر وحقيقته:

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضًا ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأول: العلم: وهو علم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته. وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتًا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس: وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل.

(١) ضعيف: حديث «ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون». أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون... الحديث» وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور. [انظر السلسلة الضعيفة: ٦٣٢].

(٢) حديث «الحمد رداء الرحمن». لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه... الحديث» وتقدم في العلم. [الحديثان عند مسلم: ٢٦٢٠].

(٣) صحيح: حديث عمر «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً». تقدم في النكاح. [ابن ماجه: ١٨٥٦، وانظر صحيح ابن ماجه].

وعن هذا عبر رسول الله حيث قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَهُ عَشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»^(١)، وقال: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(٢)، وقال: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَذْكَارِ يُضَاعَفُ مَا يُضَاعَفُ الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(٣)، ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب «فسبحان الله» كلمة تدل على التقديس و«لا إله إلا الله» كلمة تدل على التوحيد و«الحمد لله» كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدًا في حق الملك.

نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغذ الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغذ ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك.

وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضًا مضطربان من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئًا، فإذا هرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كمنظره إلى القلم والكاغذ، فلا يورث ذلك شكرًا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالعلم مثلاً في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل — شاءت أم أبت — كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده.

فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيح

(١) صحيح: حديث «من قال سبحان الله فله عشر حسنات». تقدم في الدعوات. [أحمد: ٨٠٣٢ بنحوه، وانظر صحيح الترغيب: ١٥٥٤ عن أبي مسعود وأبي هريرة].

(٢) حسن: حديث «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر. [الترمذي: ٣٣٨٣، وابن ماجه: ٣٨٠٠، وانظر صحيح الترغيب: ١٥٢٦].

(٣) حديث «ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله». لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي. يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفاً.

عليه الدواعي وألقى في نفسه أنّ خيريه في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به.

وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلاً إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعة في منفعتك لما نفعتك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعاً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها.

وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك. فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً.

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكر؟ فقال الله عز وجل: علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكراً.

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجتك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك: فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلاً فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرسه على إنسان يتصور أن يفرح بالمنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائاه عن الفرس أصلاً أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة

الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لا اختار القرب، فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذينة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرع الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذينة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال الخواص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب. وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرٍّ مَرِيضٌ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءُ الزَّلَالَا

فإذن هذا شرط الفرع بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرع الحاصل من معرفة المنعم.

وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال ﷺ للرجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟» قال بخير، فأعاد ﷺ السؤال حتى قال

في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ: «هذا الذي أَرَدْتُ مِنْكَ»^(١)، وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد ملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء.

وذلل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْنَالِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] فالشكر باللسان من جملة الشكر. وقد روي أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان.

وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة: جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار شكر النعمة: أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر: أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة: إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب

(١) صحيح: حديث قال ﷺ لرجل «كيف أصبحت؟» فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال «هذا الذي أردت منك». أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه، قال في الثالثة: أحمد الله. وهذا معضل، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: أحمد الله إليك، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر بإسناد صحيح. [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٩٥٢].

كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضا عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

بيات طريق كشف الفطاء عن السكّر في حق الله تعالى:

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثل بين أيديهم في صورة الخدم، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثل بين يديه ركعا سجدا؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لا علم له، ولاحظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

الوجه الثاني: أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة، ولو أعطانا الملك مراكبًا فأخذنا مراكبًا آخر له وركبناه، أو أعطانا الملك مراكبًا آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين.

ولسنا نشك في الأمرين جميعا، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب عليّ الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني.

وفي خبر آخر: إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا.

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم؛ فإني أعلم

استحالة الشكر لله تعالى، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه، فإن هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكراً؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر، وأنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه.

فاعلم أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول: هاهنا نظران: نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً، لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصور أن يكون غير ذلك؛ فإذا لم يكن في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ ضَالًّا أَوْفَّ بِمَا أَوْفَّ﴾ [ص: ٤٤] فقال واعجابه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثني عليه، ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرأ بين يديه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فقال: لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنيعه؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالاً من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لِأَنَّ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الَّذِينَ فُتِنُوا كَانُوا لَكَاظِمِينَ﴾ [١٥] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿١٩﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣] ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم، إذ قال تعالى:

﴿قَالَتِمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٧﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٥] وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] فهذا أحد النظيرين.

النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الفريق الثاني: ليس بهم عمى ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق، فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما أن الذي قبله جاحد تحقيقاً: فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين، فأثبت عبداً ورباً، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمسه ويقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله، ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تحصى، فبهذا تفاوت درجات الموحدين، وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحالون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول «لا إله إلا الله» ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد، إذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٢٤] فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] قال في

سجوده: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١)؛ فقلوه ﷺ: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله «ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال: أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثنيًا، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال: «لَا أُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» فقلوه ﷺ: «لَا أُخْصِي» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» بيان أنه المثني والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَغَان عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢)، فكان ذلك لترقيته إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض: أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك.

ولما قالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣)، معناه، أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات. فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة: فنقول الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة

(١) صحيح: حديث قال في سجوده «أعوذ بالله بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك». أخرجه مسلم من حديث عائشة: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك... الحديث. [مسلم: ٤٨٦].

(٢) صحيح: حديث «إنه ليغان على قلبي». تقدم في التوبة، وقبله في الدعوات. [مسلم: ٢٧٠٢].

(٣) صحيح: حديث عائشة لما قالت له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء. رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة بن شعبة. [البخاري: ٤٨٣٧، ومسلم: ٢٨٢٠ عن عروة عن عائشة، والبخاري: ٦٤٧١، ومسلم: ٢٨١٩ عن المغيرة].

وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مراكوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك، ثم يكون له حالتان:

إحدهما: أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته.

والثانية: أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغيبته لا تنقص من ملكه، فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه، فمنزلة العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى، والثانية غير محال.

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقيم بخدمته التي أرادها الملك منه.

وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً، ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافراً ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه، فهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته: أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته: أي استعملهما فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضًا نعمته إذ أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النبي: ٤-٦] الآية، فإذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضًا كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به

إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه.

ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأول: وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؛ وبهذا أيضًا ينحل الثاني؛ فإننا لم نغن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سببًا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجده، ولكن بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شئية لك وأنت شيء، إذ جعلك خالق الأشياء شيئًا وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظانًا لنفسك شيئًا من ذاتك؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئًا فأنت شيء إذ جعلك شيئًا؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقًا، وإلى هذا أشار ﷺ حيث قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(١)، لما قيل له: يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل؟ فتبين أن الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضًا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض.

وقوله: «اعملوا» وإن كان جاريًا على لسان الرسول فهو فعل من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضًا من أفعال الله تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضًا من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أي الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببًا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض: أي هو شرط، ومعنى كونه شرطًا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سببًا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

(١) صحيح: حديث «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». من حديث علي وعمران بن حصين. [البخاري: ٤٩٤٩، ومسلم: ٢٧٤٧ من علي، أحمد: ٩٣٦٨ من عمران بن حصين].

فإن قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلاً ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء؛ فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه.

وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون إلى النار قهراً، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي ﴿لَيْنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بَيِّنَاتٌ تُمَيِّزُ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَكْرَهُهُ :

اعلم أنّ فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحدهما : السمع، ومستنده الآيات والأخبار.

والثاني : بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز. فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه، إذ قال تعالى: ﴿أَنَا صَبِّئًا أَلَمَّ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ۝ وَعَيْنًا ۝﴾ [ميسر: ٢٥٠-٢٥٨] الآية.

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكَبِ ۝﴾ [الصفات: ٦] فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرجل للمشي لا للشم، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرًا يسيرًا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْفَلَعِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٥] فإذا كل من استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملها في غير ما أريدتا به، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرًا وباطنًا، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ زَكَاةٍ ۝﴾ [الدريات: ٥٦-٥٧] الآية، فكل من استعمل شيئًا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقامته

على تلك المعصية.

ولنذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه.

كما يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه، ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة.

وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر المعاملات جدّاً، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرأة لا لون لها، وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذا كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه؛ لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل

الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمره خاصة إذ لا غرض للآحاد في أعيانها فإنهما حجران، وإنما خلقا لتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعني الذي عجزوا عن إدراكه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ لَهُمْ مَكَادِبُ أَلَيْسَ﴾ [النسبة: ٣٤] وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فلقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له: من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم^(١)، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام، كما قال النحويون: إنَّ الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره، وكموقع المرأة من الألوان؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم، كما أن حبسه ظلم، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للدخار وهو ظلم.

فإن قلت: فلم جاز بيع أحد النقيدين بالآخر، ولم جاز بيع الدرهم بمثله؟ فاعلم أن أحد النقيدين يخالف الآخر في مقصود التوصل، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرت كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلاً قليلاً، ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره: وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجاز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه

(١) صحيح: حديث «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم». متفق عليه من حديث أم سلمة، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً. [البخاري: ٥٦٣٤، ومسلم: ٢٠٦٥].

عاقِل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر، وذلك أيضًا لا يتصور جريانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد؛ وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها وردئها سواء؛ لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد.

وأما إذا باع درهمًا بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر.

والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضًا ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعارضة، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها؛ إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجًا ولم يجعله بضاعة تجارة، وإن جعله بضاعة تجارة فليعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجًا إليه، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضًا مستغن عنه، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب؛ نعم بائع البر بالتمر معذور، إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة؛ ومقابلة الجيد بمثلها من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد.

وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيّات فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون المكيلات، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول؛ ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات، ولكن كل معنى يراعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحدد هذا كان ممكنًا بالقوت وكان ممكنًا بالمطعموم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعموم أخرى لكل ما هو

ضرورة البقاء؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحدّ لتحجير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص.

فمعين المعنى بكمال قوّته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحدّ ضروريًا، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١] ولأنّ أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر؛ لأنّ قليله يدعو إلى كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال ﷺ «لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ»^(١)، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر، فأقول مثلاً: لو استنجيت باليمنی فقد كفرت نعمة الیدين، إذ خلق الله لك الیدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله لا يأمر بالعدل، ثم أحوجك من أعطاك الیدين إلى أعمال: بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمنی فقد خصصت الشریف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيصة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميت بصاقتك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي

(١) حديث «لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء». تقدم في الصوم.

بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروهاً، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة وكان يتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها، فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدى من وجهين:

أحدهما: الشرب والآخر الأخذ باليسار، ومن باع خمراً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين: أحدهما: بيع الخمر، والآخر البيع في وقت النداء. ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدير القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، فينمحق بعضها في جنب البعض، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب، نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزل وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة.

وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه، فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك، إذ الشجر والحيوان جعلاً فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان، إفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً، لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً، فصاحب الاختصاص

هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمفرسه أو بغرسه، فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه، فللسابق خاصية السبق، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدة لعبيده، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد — فإن اليد وصاحب اليد أيضًا مملوك — ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فممنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عبادته، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكران عن كل كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ [معد: ٣٧].

بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣] وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا يَحْصِيهِمْ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٧] فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا آخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء

مبادئها؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

فإن قلت: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى؟ فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويفات بمبادئها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهما من عرف منطق الطير ويجدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلاً عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير فنقول: إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادي إشرافها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعبروا من جسيب عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضئيلاً جداً، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق، والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة، فهي توهم منها أمراً مجعلاً عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة، واستعير النسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل: إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة، منهما أمراً مجعلاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها، ولكون

ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها، فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انسأقت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأردى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمت زينته قال يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني على الجمال فهو المثني عليه بكل حال، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتماذي إلى غير نهاية.

وقيل: إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل، وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فألجموا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتكم ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وامتألت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم: تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا^(١) فإن للشيطان آذاناً وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من

(١) صحيح: حديث «إذا ذكر القدر فأمسكوا». رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً. [انظر السلسلة الصحيحة: ٣٤].

منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شربنا شرابًا طيبًا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره، ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلاً له، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما، س فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجّر وراءه أعمى، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجّر وراءه آخر؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم؛ فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين؛ ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال ﷺ: «لَوْ أَزْدَادَ يَقِينًا لَمْشَى عَلَى الْهَوَاءِ»^(١)، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعباده، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم إن أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين: ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨]. والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في

(١) منكر: حديث قيل له: يقال إن عيسى مشى على الماء قال «لو ازداد يقينا لمشى على الهواء». هذا حديث منكر لا يعرف هكذا، والمعروف. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقبل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء، فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شجرة مشى على الماء. [الواضح من صياغة المصنف أنه ليس حديثه ولكن قول بكر المزني] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال». [حديث «يقال أن عيسى...»، وحديث «لو عرفتم الله...» هما فقرتين من حديث واحد انظر السلسلة الضعيفة: ٤٣٥٧، وقال الألباني: منكر].

العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول «هذا فعلي، ولم يكون فعله دون فعلي؟» فإنك أخطأت إذا أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك فإنك أيضاً من أفعاله، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبته بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك تضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبد الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعم وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورعوسها في يد المشعبد وهو محتجب عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده.

وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبد الذي الأمر إليه والجاذبة بيده، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أذك منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رعوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات، وشاهدوا أيضاً ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الدَّارِيات: ٢٢] وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلَاق: ١٢] وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلوم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢] فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر.

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علوا درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلى درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا وعليهم، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبیین، يليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم، ومن عدا هؤلاء فهمج راع.

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالماً فاسقاً.

قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

وقال النبي ﷺ: «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتَنْكُرُونَ، وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرَ، فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ»^(١)، وقال سهل: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل. وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان، فقيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين: نظرة إلى سلامة أموال

(١) حديث «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكررون، ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر». أخرجه مسلم من حديث أم سلمة «يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتكررون» [مسلم: ١٨٥٤] ورواه الترمذي بلفظ «سيكون عليكم أئمة» [عند الترمذي: ٢٢٦٥]، وتنتظر صحيح الجامع: [٢٣٩٥] وقال حسن صحيح، وللبيزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر» [انظر ضعيف الترمذي: ١٣٢٤]، وقال الألباني: موضوع، ولفظ «وما يصلح الله بهم أكثر» انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٥٢، وقال الألباني: ضعيف جداً. وأما قوله «وما يصلح الله بهم أكثر» فلم أجده بهذا اللفظ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله: اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول - فذكر حديثاً فيه «والإمارة الفاجرة خير من الهرج» رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه، وكان يقول: الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاص يقصون.

الركن الثاني من أركان الشكر، ما عليه الشكر

وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فنقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد، والله الموفق للصواب.

بيات حقيقة النعمة وأقسامها:

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية.

والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسم الأول: أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً: كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل: كالتلذذ باتباع الشهوات، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل: كقمع الشهوات ومخالفة النفس، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه.

والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال: ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعدّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوها إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدواً له؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدواً باطنياً في

صورة صديق؛ لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو.

قسمة ثانية: اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافيء ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضًا إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

قسمة الثالثة: اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأول: ما يؤثر لذاته لا لغيره: كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقاءه، وبالجمله سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها.

الثاني: ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته: كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبه في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالرأى ويظنون أنها مقصودة، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصاً فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولاً بتعهد الرسول ومراعاته وتفقدته، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره: كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضًا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضًا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضًا فهو نعمة ولكن دون الأول، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالتقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرًا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته، استوى عنده الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان

نعمة.

قسمة رابعة: اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال: والشئور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنعه الحسد، والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. والضرب الثاني: المقيد، وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل: استراح من لا عقل له فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضارّ من وجه: كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضرورياً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه.

قسمة خامسة: اعلم أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيق، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات.

أما العقلية فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل، وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم.

وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تمل، فالطعام يشبع منه فيمل، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه: أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإتفاق والمال

ينقص بالإتفاق، والمال يسرق والولاية يعزل عنها، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدًا، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدًا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبدًا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرًا في مواضع.

وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم. فإما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشق، إذ الشوق تبع الذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراها مرًا، وإما لقصور فطنتهم، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيدة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألد الأشياء، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة، إما من لم يحيى باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] إشارة إلى مرض العقول.

وقوله عز وجل: ﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] إشارة إلى من لم يحيى حياة باطنة، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية: لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات.

الثالثة: ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجودًا وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات، ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة، وهو أشدها التصاقًا بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة. وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون: فأما قمعها بالكلية، حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجًا عن مقدور البشر. نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرئاسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه، وقلب لا

يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية.

وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة. أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد. وأما الثاني فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة، إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثر،ون، فكما لا يكون الفائت في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة، فإن الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك، فإنك لا ترى نفسك، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدماً، وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الحق به فقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكْأُولَى الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢٠] ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين، فلذلك قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ نَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥-٦] أي في الدنيا ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] أي في الآخرة، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا.

قسمة سادسة: حاوية لمجامع النعم: اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية؛ أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور:

بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل فيه، وغنى لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(١)، وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس، وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر؛ وقال ذلك مرة في السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع^(٢).

وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النُّعْمَةِ؟» قال: لا. قال: «تَمَامُ النُّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ»^(٣).

وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس: وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيعة بالبدن من المال والأهل والعشيرة؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية، فهي إذن أربعة أنواع:

النوع الأول: وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة.

وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين: ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله، إذ قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨-٩] فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبارة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان.

ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان، فإذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة، ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر ولا تنهيا هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيعة بالبدن وهي أربعة:

(١) صحيح: حديث قوله عند حفر الخندق «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ». متفق عليه من حديث أنس. [البخاري: ٢٩٦١، ومسلم: ١٨٠٥].

(٢) حديث قوله في حجة الوداع «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ». رواه الشافعي مرسلًا، والحاكم متصلًا وصححه، وتقدم في الحج.

(٣) ضعيف: حديث قال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النُّعْمَةِ؟» قال: لا. قال: «تَمَامُ النُّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ». أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن. [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر السلسلة الضعيفة: ٣٤١٦].

المال والأهل، والجاه، وكرم العشيرة، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجية والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأيينه، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة، وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري.

وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجية مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة. فإن قلت: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجية من المال والأهل والجاه والعشيرة؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود. أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية:

كساع إلى الهيجا بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح
ولذلك قال ﷺ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١)، وقال ﷺ: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ»^(٢)، وكيف لا ومن غديم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم؟ فقال: الغنى فإنني رأيت الفقير لا عيش له. قيل: زدنا قال: الأمن، فإنني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا قال: العافية، فإنني رأيت المريض لا عيش له.

قيل: زدنا قال: الشباب، فإنني رأيت الهرم لا عيش له. وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ

(١) صحيح: حديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح». رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد. [أحمد: ١٧٣٤٦، وانظر المشكاة: ٣٧٥٦].

(٢) ضعيف: حديث «نعم العون على تقوى الله: المال». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر. ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا: ومن طريقه رواه القاضي في مسند الشهاب هكذا مرسلًا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٠٤٢].

الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا»^(١)، وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما، إذ قال ﷺ: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢)، وقال ﷺ في الولد: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...» الحديث^(٣) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح.

وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطلال شغله، وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة.

وأما العز والجاه، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضميم، ولا يستغني عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ولا معنى للجاه إلى ملك القلوب، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته، فيحتاج أيضًا إلى من يدفع الشر به عن نفسه، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنها والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسول الله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذي ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة^(٤).

(١) حسن لغيره: حديث «من أصبح معافي في بدنه أماناً في سربه». أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٦، وابن ماجه: ٤١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

(٢) حديث «نعم العون على الدين المرأة الصالحة». [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٠٤١، وقال الألباني: لا أصل له] لم أجده له إسناداً، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» [مسلم: ١٤٦٧].

(٣) صحيح: حديث «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وتقدم في النكاح. [مسلم: ١٦٣١].

(٤) حديث: ما ناله ﷺ من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال «لقد لقيت من قومك ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل...» الحديث [البخاري: ٣٢٣١، ومسلم: ١٧٩٥]. وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوديت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتى علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» [الترمذي: ٢٤٧٢، وابن ماجه: ١٥١، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢٨١] قال الترمذي: معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة

فإن قلت: كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ»^(١)، ولذلك كان من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام^(٢) وقال ﷺ: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ الْأَكْفَاءَ»^(٣)، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ» فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: «الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبِتِ الشَّوْءِ»^(٤)، فهذا أيضاً من النعم ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول: لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال: «أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طَوْلُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٥)، وإنما يستحق من جملة أمر الجمال، فيقال يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً: أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها، وأما في الآخرة فمن وجهين:

أحدهما: أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه، إذ هو نوع قدرة، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها.

ومعه بلال. وللبخاري عن عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه... الحديث [البخاري: ٣٦٧٨]. وللبخاري وأبي يعلى من حديث أنس قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. وإسناده صحيح على شرط مسلم. (١) صحيح: حديث «الأئمة من قریش». رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح. [أحمد: ١١٨٩٨، وانظر صحيح الترغيب: ٢١٨٨].

(٢) حديث: كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأصل، هذا معلوم، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم: ٢٢٧٦] وفي رواية الترمذي «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» [الترمذي: ٣٦٠٥، وانظر صحيح الترمذي] وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم» [الترمذي: ٣٦٠٧، وانظر السلسلة الضعيفة: ٣٠٧٣] وفي حديث ابن عباس «ما بال أقوام يتنزلون أصلي، فوالله لأنا أفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً». [وحدث «ما بال القوة...»].

(٣) حسن: حديث «تخيروا لنطفكم». أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في النكاح. [ابن ماجه: ١٩٦٨، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٤) ضعيف جداً: حديث «إياكم وخضراء الدمن». تقدم فيه أيضاً. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٤].

(٥) صحيح: حديث «أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله». غريب بهذا اللفظ، وللترمذي من حديث أبي بكر أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال «من طال عمره وحسن عمله» وقال حسن صحيح. [الترمذي: ٢٣٣٠، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٦٣].

والثاني: أنَّ الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن.

ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم، ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس. وقيل: ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه. واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح، فاستنطقه فإذا هو ألكن، فأسقط اسمه من الديوان وقال: الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة، أو على الباطن ففصاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال ﷺ: «اطلبوا الخيرَ عندَ صباحِ الوجوه»^(١)، وقال عمر رضي الله عنه: إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم.

وقال الفقهاء: إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهها أولاهاهم بالإمامة، وقال تعالى ممتنا بذلك: ﴿وَزَادَهُمْ بُسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناسف خلقة الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه.

فإن قلت: فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم، وقد ذم الله تعالى المال والجاه، وكذا رسول الله ﷺ^(٢) وكذا العلماء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقال علي كرم الله وجهه في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه. وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه. فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المثولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى؛ فهذه نعمة معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها، إلا أنَّ فيها فتناً ومخاوف؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء

(١) موضوع: حديث «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه». أخرجه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة، وخيرة وأمها لا أعرف حالهما. ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وله طرق كلها ضعيفة. [انظر ضعيف الجامع: ٩٠٣].

(٢) صحيح: حديث «ذم المال والجاه». أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك «ما ذئبان جاثعان أرسلاني غنم بأنفس لها من حب المال والشرف لدينه» وقد تقدم في ذم المال والبخل. [الترمذي: ٢٣٧٦، وانظر صحيح الترغيب: ١٧١٠].

وهلاك، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلئ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالمًا بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرًا، ومدحه رسول الله ﷺ وقال: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَالُ» وكذلك مدح الجاه والعز، إذ من الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق، وهو المعنى بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب.

ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون، فقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم، نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررًا كثيرًا، ولو أخذها لأخذها الصبي ومعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سماً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلًا بما فيها من نفع الترياق، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة.

وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يمرأى من ولده لاتبعه وهلك. فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر. فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل.

فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء.

ولذلك قال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»^(١)، وقال ﷺ: «إنكم تتهاقنون على النار تهافت الفراش وأنا أخذ بحجزكم»^(٢)، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم

(١) حسن: حديث «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله «لولده» وقد تقدم. [النسائي: ٤٠، وابن ماجه: ٣١٣، والمشكاة: ٣٤٧ من أبي هريرة، وحسنه الألباني، ولم أقف عليه عند مسلم].

(٢) صحيح: حديث «إنكم تتهاقنون على النار تهافت الفراش وأنا أخذ بحجزكم». [البخاري: ٦٤٨٣،

لم يبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه، فإن الإنفاق فيه الترياق، وفي الإمساك السم، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفضل إلى الخيرات فليس بمذموم، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لِيَكُنْ بَلَاغٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّائِبِ»^(١)، معناه لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة.

ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقرى الضيف...» الحديث^(٢) فإذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها؛ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيًا داءها ومستخرجًا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئًا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغني عنه أحد: وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن

ومسلم: ٢٢٨٤ من أبي هريرة [متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «مثلي ومثل الناس» وقال مسلم «ومثل أممي كمثلي رجل استوفد نارا فجعلت الدواب والفراس يقعن فيه فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» ولمسلم من حديث جابر «وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي». مسلم: ٢٢٨٥ عن جابر].

(١) صحيح: حديث «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب». أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال «بلغة» وقال «مثل زاد الراكب» وقال صحيح الإسناد قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه «عهد إلى أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب». [ابن ماجه: ٤١٠٤، وانظر صحيح الجامع: ٥٤٦٥].

(٢) حديث استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «مره بأن يطعم المسكين». أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد، قلت. كلا، فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جدا.

الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأكثر ما يجني عليه اجتهاده
فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها؛ لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وقال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى» أي بهدایتہ، فقول: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا»^(١)، وللهداية ثلاث منازل.

الأولى: معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البند: ١٠] وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] الآية. وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقوله تعالى: ﴿أَبَشْرًا مِّنَّا وَحَدًّا نَّيِّعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء.

والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكوت: ٦٩] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمُ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

والهداية الثالثة وراء الثانية، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم

(١) صحيح: حديث «ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله». متفق عليه من حديث أبي هريرة «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» [البخاري: ٥٦٧٣، ومسلم: ٢٨١٦ عن أبي هريرة، والبخاري: ٦٤٦٧، ومسلم: ٢٨١٨ عن عائشة، ومسلم: ٢٨١٧ عن جابر] قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» وفي رواية لمسلم «ما من أحد يدخله عمله الجنة... الحديث» [مسلم: ٢٨١٦] واتفقوا عليه من حديث عائشة، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم.

العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات، وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠] وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] والمعنى بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساد، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيرًا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدًا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطي الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة.

وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليستند في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرد أنها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي، بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكُل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿إِذْ أَيْدِيكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٤] فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرتة والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء، ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابًا، وتستدعي تلك الأسباب أسبابًا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجًا ليعلم به معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وبالله التوفيق.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء:

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربًا، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة لا بدّ لها من جسم متحرك هو آلتها، ولا بدّ لها من قدرة على الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له، ولا بدّ للأكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بدّ له من صانع يصلحه، فلنذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك:

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودًا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى؛ فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فبها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر، إلا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه إذا أعوزته غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب، منه، وهذا أوّل حس يخلق للحيوان، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس؛ لأنه إذا لم يحس أصلًا فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحسن بما لا يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصًا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيرًا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء التي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك

وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات؛ لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع، فاشتدّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حسّاً مشتركاً تتأدّى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لطال الأمر عليك، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانياً، وهذا كله تشارك فيه الحيوانات، إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً؛ فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت، وقد تلغى نفسها في بشر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتاتها في الحال والمآل، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقلك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختصّ به، فواحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها، إذ

ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء: مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعنّ له، فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنن أنا استوفيناها؛ فإنّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم، فهذا في حس واحد، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس؛ بل لا يمكن أن تستوفي في حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة، مع أنّ جملة لا تزيد على جوزة صغيرة؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات:

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالمتقاضى الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغذي فتبقى بالغذاء، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في

بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغعة وعلقة ثم عظمًا ولحمًا ودمًا، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء: لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلًا عما تراه الآن، ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام؛ فإذا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال، وأما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب، كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضررك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم لإكرامًا لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثًا دينيًا، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلًا أوفى من هذا.

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة:

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج وخدر فيهما، فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبًا وبمقتضى الكراهية هربًا، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها، فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للدواب، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافًا كثيرًا، فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح لطير بسرعة، ومنها ما خلق له أربع قوائم، ومنها ما له رجلان، ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه، فافتقرت إلى آلة باطشة، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشمئتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة؛ ثم جعل رأس اليد عريضًا بخلق الكف؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صنفين بحيث يكون

الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رؤوس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحي، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطحن.

فجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان، أو كيف تستجزه الأسنان إلى نفسها، أو كيف يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بذكرها، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المنعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن

يصير لحمًا وعظمًا ودمًا على هذه الهيئة بل لا بد وأن يطبخ طبخًا تامًا حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابتًا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدام الترائب، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابهًا يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ويشتت في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو المخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقًا ممدودًا إلى الكبد داخلًا في تجويفه، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافيًا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية، ولأخرج منها متصاعدًا إلى الأعضاء، فخلق الله سبحانه الكلبيين وأخرج من كل واحدة منهما عنقًا طويلًا إلى الكبد.

ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلًا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حذبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيًا من الفضلات الثلاث نقيًا من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا، ثم قسمها بعد الطلوع أقسامًا، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرًا وباطنًا، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب المخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها، وإن لم تندفع المائية نحو الكلبي حدثت منه الاستسقاء وغيره.

ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث

الخشيسة: أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلفة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع، فتتضغظ حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفوته لذلك.

وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويشيرها ويخرج الباقي مع الثفل، وأما الكلية فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل.

ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواري من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها — لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمر آخر سواه، بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولاً لتقوى بعدها على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجتمع ويستنهض فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضواري فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح؛ ومحل القلب، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة،

والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيتُه انطفأ فسراج الروح أيضًا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رماذا بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السرج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء، فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولًا تشبث النار به؛ وكما أن السراج تارة تنطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر؛ فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقه أنواره التي كان يستفيد منها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة، فهذا أيضًا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكُلِّمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] عز وجل: فتعسا لمن كفر بالله تعسا؛ وسحقا لمن كفر نعمته سحقا.

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ^(١)، فلم يصفه لهم على هذا الوجه.

فلعلهم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطوّل بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسمًا لطيفًا تسميه الأطباء روحًا، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل.

وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] والأمور الربانية لا تحتل العقول وصفها بل تنحير فيها

(١) صحيح: حديث: أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال «الروح من أمر ربي». متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب. [البخاري: ٧٤٦٢، ومسلم: ٢٧٩٤].

عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتترزلز في ذكر مبادئ وصفها معاهد العقول المقيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني، فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل الميدان، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه.

وأني يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك، ولا يشك في أن خطأه فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جداً، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتحدث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٣٠ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٣١﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] ولنرجع الآن إلى الغرض، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل.

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعه:

اعلم أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصي وأسباب متوالية لا تتناهي، وذكر ذلك في كل طعام مما يطول، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنييت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما

يغتذي به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في
الاعتناء لأنه يفتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تفتذي أنت وتجتذب،
ولسنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن نشير إلى غذائه فنقول:
كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغتذي
بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس
يحيط بها إلا هواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها
في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، وإليه
الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٦﴾ أَنَّا صَبَّأْنَا اللَّيْلَةَ صَبًّا ۚ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ ﴿٢٨﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ ﴿٢٩﴾ وَنَبَاتًا وَغَضًّا ۚ ﴿٣٠﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٤-٢٩] الآية؛ ثم لا يكفي الماء والتراب،
إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض
رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك
الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا
الرِّيحَ لَافِجًا ۚ﴾ [الحجر: ٢٢] وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل
ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف؛ فقد بان
احتياج غذائه إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد، إذ يحتاج الماء لينساق إلى
أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون
وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله
تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال
حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدرارًا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على
حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجًا، فلو
خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار
والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما
باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في
وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد، والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه
إحدى حكم الشمس — والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض
كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من
خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير
الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب
عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة، وتعرف
ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام

فكما يربط رأسك يربط الفاكهة أيضًا، ولا تطول فيما لا مطمع في استقصائه، بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للتطريب، فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثًا وباطلاً ولم يصح قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة، والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول، ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابًا لها بحكم الحكمة — مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم^(١) بل المنهي عنه في النجوم أمران:

أحدهما: أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها: وهذا كفر.

والثاني: تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادمًا في الدين بل هو حق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تحفيغه فقال لك غيرك: أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال: قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك، وقس بهذا سائر الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول.

فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر؛ فإذا الكواكب

(١) صحيح: حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم. أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» [أبي داود: ٣٩٠٥، وابن ماجه: ٣٧٢٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣٠٥١] وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» [انظر صحيح الجامع: ٥٤٥] وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم في العلم. ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت يا رسول الله، أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان! قال «فلا تأتوا الكهان... الحديث» [مسلم: ٥٣٧].

ما خلقت عبثاً، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم قال ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبْلَتَهُ»^(١)، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى، فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محرّكة لا متحرّكة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار؛ فإذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات.

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب المرسلة للطعمة اليك:

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون فيما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغزروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الله الحيوانات

(١) حديث قرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم قال «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» أي ترك تأملها. أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف.

وسخرها للركوب والحمل في البراري، وانظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز.

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة:

اعلم أنّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل، وهو كذلك، بل لا بدّ في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفاً واحداً، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأول ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدّة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين ثم الخبز؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار، وحدّاد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة فإن فتشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافترقت إلى عمل المنجل الذي تحصده به البر مثلاً بعد نباته لنفذ عمره وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه

لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها، فسبحان من الحق ذوي الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبسين مع هذا البيان، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً، أو عن الحدّاد، أو عن الحجّام الذي هو أخس العمال، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصّناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين:

اعلم أن هؤلاء الصّناع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبدّدا وتباعدا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألفت الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿لَوْ أَفْقَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبنوا المدن والبلاد وربّوا المساكن والدور متقاربة متجاورة وربّوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جملة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدّهم بالقوة والعدّة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربّوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض، فربّوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزمهم التساعد والتعاون حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد، وصار الحجّام ينتفع بالحراث، والحراث بالحجّام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض.

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالحباز

يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد، والحدّاد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحدّاد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإن تكلمنا فيآذنه انبسطنا، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام: ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما.

واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر، ثم يصير لحماً وعظماً، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينة ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروقاً وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل

الفاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجناف مع رقتها وإلى الحديقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ولا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع، بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيت فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلاً لبقيت تلك الرجل كما كانت في حدّ الصغر وكبر جميع البدن، فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة، ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزاءك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك، تركنا تفضيل ذلك للإيجاز، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب ^(١) أكثر من أن تحصي فلذلك تركنا الاستشهاد به.

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب... ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل [البخاري: ٣٣٤٢، ومسلم: ١٦٣] لخازن السماء الدنيا: افتح، وفيه: أتى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح،... الحديث، ولهما من حديث أبي هريرة «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» [النسائي: ١٢٨٢ عن ابن مسعود، ولم أجده في الصحيحين، ولا عن أبي هريرة كما ذكر المصنف -رحمه الله-، وانظر صحيح الترغيب: ١٦٦٤] وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد الليل [البخاري: ٣٢٣١، ومسلم: ١٧٩٥] فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين... الحديث، ولهما من حديث أنس «إن الله وكل بالرحم ملكاً...» الحديث [البخاري: ٣١٨، ومسلم: ٢٦٤٦] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي «ما من نبت ينبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يحصد...» الحديث، وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكرائي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف «إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في

فإن قلت: فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم أفترق إلى سبعة أملاك، والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً، ثم إلى من يعجن رابعاً، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً، ثم إلى من يرقها رغفاناً عريضة سادساً، ثم إلى من يلصقها بالنور سابعاً، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً؟ فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقه الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِمَّا إِلَّا لِمُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس، فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعاں الشم؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، والراكع منهم راکع أبداً، والساجد منهم ساجد أبداً، والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك، فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاً وإطباقاً والملائكة أحياء عالمون بما يعملون؛ فإذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها؛ فإننا لم نطول بذكرها؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع

عنقها جرس» [انظر ضيف الجامع: ١٩٥٥] وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال «ملك من الملائكة موكل بالسحاب» [الترمذي: ٣١١٧، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٨٧٢] ولمسلم من حديث أبي هريرة «بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتاً من سحابة: اسق حديقه فلان، فتتحنى ذلك السحاب فأفرغ ماء في حرة... الحديث». [مسلم: ٢٩٨٤].

الطبقات، فإذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمَ الْاَيْمَنَ وَبَاطِنَهُ﴾ [الانعام: ١٢٠] فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبديعة وإضممار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول: كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفًا واحدًا أن يكون مانعًا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبيهاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل: وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان بمقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر، فيكون شبك الشعر مانعًا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل، ثم إن أصاب الحدة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدة كالمصقلة للمرأة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدة من الغبار وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان، والذباب لما لم يكن لحدة جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقيه ليصقلهما من الغبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتابًا مقصودًا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسيمه عجائب صنع الله تعالى، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات، ولا السموات إلا بالملائكة، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض، فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه، ولذا ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم^(١)، وكذلك

(١) حديث «إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم». لم أجد له أصلاً.

ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر^(١) وأن الملائكة يلعنون العصاة^(٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملوك، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها، فيتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه.

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: «يا أيوب ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللهم زده نعمًا على نعم، فإنك أهل الحمد والشكر، فكن من الشاكرين قريبًا فكفى بالشاكرين علو رتبة، وعندني أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم».

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعمًا كثيرة، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] قال: إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الأثر: أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به، فإن البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطعم.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله.

ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء

(١) حسن: حديث «إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر». تقدم في العلم. [الترمذي: ٢٦٨٥ بنحوه، وانظر صحيح الترغيب: ٨١].

(٢) صحيح: حديث «إن الملائكة يلعنون العصاة». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه. [مسلم: ٢٦١٦].

فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة - وقد ذكرنا النعم العامة - فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول: ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله

رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرةً تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله العقل، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره؛ لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزًا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فبقي فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقى.

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها وأخلاقًا يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئًا عنها، فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيئ.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة فإذا لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد، فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقًا.

وإما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلًا، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقرابه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمورًا لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن يجعله مؤمنًا لا كافرًا وحيًا لا جمادًا وإنسانًا لا بهيمة وذكورًا لا أنثى وصحيحًا لا مريضًا وسليمًا لا معيبًا؛ فإن كل هذه خصائص، وإن كان فيها عموم أيضًا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضًا، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر، فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلًا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص؛ فإذا لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله

لا يسوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبداً في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيراً منه، وحاله في الدنيا خيراً من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر وإذا قال ﷺ: «مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَتْهُ اللَّهُ صَابِرًا وَشَاكِرًا. وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا شَاكِرًا»^(١) فإذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك، ولذلك قيل:

من شاء عيشًا رحيًا يستطيع به في دينه ثم في دنياه إقبالاً

فلينظرون إلى من فوقه ورعًا ولينظرون إلى من دونه مالا

وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْتَعْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا أَغْنَاهُ اللَّهُ»^(٢)، وهذا إشارة إلى نعمة العلم.

وقال عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْغَنَى الَّذِي لَا غِنَى بَعْدَهُ وَلَا فَقْرَ مَعَهُ»^(٣)، وقال عليه

السلام: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أُعْغِيَ مِنْهُ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ»^(٤)، وقال ﷺ:

«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٥)، وقال عليه السلام: «كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى»^(٦)، وقال بعض

السلف: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: «إِنْ عَبْدًا أُغْنِيَتْهُ عَنْ ثَلَاثَةِ لَقَدْ أَتَمَمْتَ عَلَيْهِ

نعمتي: عن سلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعمّا في يد أخيه» وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوتُ يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحتُ أخًا حزينًا فلا فارقك الحزن

(١) ضعيف: حديث «من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف. [الترمذي: ٢٥١٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٩٢٤].

(٢) حديث «من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله». لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) ضعيف: حديث «إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه». أخرجه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ «إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه» قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلًا، وهو أشبه بالصواب. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٥٨].

(٤) ضعيف جدًا: حديث «من آتاه الله القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله». أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ «من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم» وقد تقدم في فضل القرآن، ورجاء مختلف في صحبته. وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٨١١].

(٥) صحيح: حديث «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». تقدم في آداب التلاوة. [البخاري: ٧٥٢٧].

(٦) ضعيف جدًا: حديث «كفى باليقين غنى». رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً عليه، وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٥١].

بل أرسق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر عن هذا المعنى فقال: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ: فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَائِهَا»^(١)، ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث؛ مع أنها وبال عليهم لا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضًا عن علمك بل عن عشر عشر علمك: لم يأخذها، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلًا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به، فكان لا يأخذها، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها، هكذا كانت إلى الآن، وهكذا تكون ما بقي من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت، كالمرأة الجميل ظاهرها تنزين للشباب الشبق الغني، حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإن المقبل عليها أيضًا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فإذا نأمنس طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة. وأما القلوب البليدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها، فسيبيله أن ينظر أبدًا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية، إذ كان يحضر كل يوم دار

(١) حسن لغيره: حديث «من أصبح آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه: فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». تقدم غير مرة. [الترمذي: ٢٣٤٦، وابن ماجه: ٤١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات، وأما العاصي فغبنة ظاهر، فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فحساها تشكر.

وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلاً في عنقه وينام في لحده ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ثم يقوم ويقول: يا ربيع وقد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدها بالشكر. وفي الخبر: «مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ إِلَّا كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ فَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِمْ عَرَضَ تِلْكَ النِّعْمَةُ لِلزَّوَالِ»^(١)، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فهذا تمام هذا الركن.

* * *

(١) ضعيف: حديث «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه». أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ «إلا عظمت مؤونة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المؤونة... الحديث» رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال: إنه موضوع على حجاج الأعمور. [انظر ضعيف الترغيب: ١٥٧٢].

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه
الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيانات وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد:

لعلك تقول: ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن. وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء.

وقد ادعى مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة، فكيف يتصور الشكر على البلاء، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان، وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان: ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه: أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه: كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد: أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبداً.

وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة.

وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه؛ لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر: فإن الغنى مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحة أيضاً كذلك؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن يصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله؛ فرب عبد تكون الخيرة

له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿١﴾ إِنَّ رَأْيَهُ أَسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ»^(١) وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعمًا في حقهم، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدتها نعمة، مثاله: جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالأعلى عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليًا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبيًا أو وليًا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف.

ومنها: إيهام الله تعالى أمر القيامة، وإيهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإيهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم.

وحيث قلنا: إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في حق كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضًا قد تكون نعمة في حق المتألم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضًا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، وفرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار.

أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها،

(١) صحيح لغيره: حديث «إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٠٣٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٠].

فإذن قد صح ما ذكرناه من أنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً إما على المبتلى أو على غير المبتلى، فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعاً.

فإن قلت: فهما متضادان فكيف يجتمعان؟ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تنهاه فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزها، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه: قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال له: اشكر الله فضربه؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال: اشكر الله، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطوناً فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي، فأرسل إليه فقال: اشكر الله، فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه بذلك، فقال اشكر الله، فقال: إلى متى هذا، وأي بلاء أعظم من هذا؟ فقال: لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟ فإذا ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلاً وأجلاً ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحق عليك أن يقطع يدك فترك إحداها فهو مستحق للشكر.

ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد، فسجد لله تعالى

سجدة الشكر، ف قيل له: ما هذه السجدة؟ فقال: كنت أنتظر أن تصب علي النار، فالاقتصار على الرماد نعمة، وقيل لبعضهم: ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال: أنتم تستبطون المطر وأنا أستبطيء الحجر.

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُعَلِّمُهُم لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأما العصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنى وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالى في مثله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك.

وهذا هو الوجه الثالث في الشكر، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيًا، إذ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ أَوْ بَلَاءٌ فِي الدُّنْيَا قَالَهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذَّبَهُ ثَانِيًا»^(١).

الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين:

أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببًا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببًا لهلاكه، فالملحدة غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة

(١) ضعيف: حديث «إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة وبلاء في الدنيا قاله أكرم من أن يعذبه ثانيًا». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي «من أصاب في الدنيا ذنباً عوقب به قاله أعدل من أن يشي عقوبته على عبده... الحديث» لفظ ابن ماجه. وقال الترمذي «من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا...» [البخاري: ١٨، ومسلم: ١٧٠٩] وقال حسن. وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له... الحديث». [الترمذي: ٢٦٢٦، وابن ماجه: ٢٦٠٤، وانظر ضعيف ابن ماجه].

دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخير ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغدا يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثواب الله على البلاء، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد، فقد روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك»^(١). ونظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال: «عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن: إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضي وكان خيراً له»^(٢).

الوجه الثاني: أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجناً عليه، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن، ولذلك قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٣)، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأن إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي، بل الموحّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق، فإذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجاناً، أو يسقيك دواءً نافعاً بشعاً مجاناً، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منه لا محالة فرأى وجهها حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبلاً وبلاً لأنه يورثه الأُنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم

(١) حسن لغيره: حديث: قال له رجل أوصني قال «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك». رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيعة. [أحمد: ٢٢٢١٠، وانظر صحيح الترغيب: ١٣٠٧].

(٢) حديث: نظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال «عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن». أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء، وضحكه «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابه ضراء صبر فكان خيراً له» [مسلم: ٢٩٩٩] وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص «عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابته خير حمد ربه وشكر... الحديث».

(٣) صحيح: حديث «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [مسلم: ٢٩٥٦].

خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة؛ فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة. وحكي أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال:

أصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي.

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِيبْ مِنْهُ»^(١)، وقال ﷺ قال الله تعالى: «إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا» وقال عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِشْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِ»، وقال ﷺ قال الله تعالى: «مَنْ سَلَّتْ كَرِيْمَتِي فَجَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ».

وروي أن رجلاً قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال ﷺ: «لا خَيْرَ فِي عَبْدٍ لَا يَذْهَبُ مَالُهُ وَلَا يَسْقَمُ جِسْمُهُ، إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ وَإِذَا ابْتَلَاهُ صَبَرَهُ»^(٢)، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتْلُغُهَا بِعَمَلٍ حَتَّى يَيْتَلَى بِبَلَاءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَتْلُغُهَا بِذَلِكَ»^(٣)، وعن خباب بن الأرت قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُخَفَّرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ خَفِيرَةٌ

(١) صحيح: حديث «من يرد الله به خير يصيب منه». رواه البخاري من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٦٤٥].

(٢) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده، إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

(٣) صحيح لغيره: حديث «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». رواه أبو داود في رواية ابن داسه، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمي جده اللجلاج بن سليم، فالله أعلم. وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده. ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم. [أبو داود: ٣٠٩٠ وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٠٩].

وَيُجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»^(١)، وعن علي كرم الله وجهه قال: أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد، وإن ضربه فمات فهو شهيد، وقال عليه السلام: «مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُرُوهُ وَجَعَلَكُمْ وَلَا تَذْكُرُ مُصِيبَتَكُمْ».

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرسون على ما يفنى وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الفقر والمرض والموت.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ صَبًّا وَنَجَّاهُ عَلَيْهِ نَجًّا، فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: صَوْتُ مَعْرُوفٍ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَا رَبِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتَكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَا هُوَ خَيْرٌ وَادْخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفِّوا أَعْمَالَهُمْ بِالْمِيزَانِ: أَهْلُ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمْ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ سَبًّا فَيُؤَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُفْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِيطِ لِمَا يَرَوْنَ مَا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ»^(٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شكنا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترأ عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا؛ فأوحى الله تعالى إليه: «إِنَّ الْعِبَادَ لِي وَالْبَلَاءُ لِي وَكُلٌّ يَسْبَحُ بِحَمْدِي، فَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَأُزْوِي عَنْهُ الدُّنْيَا وَأَعْرِضُ لَهُ الْبَلَاءُ فَيَكُونُ كَفَّارَةً لَذُنُوبِهِ، حَتَّى يُلْقَانِي فَأُجْزِيَهُ بِحَسَنَاتِهِ. وَيَكُونُ الْكَافِرُ لَهُ الْحَسَنَاتُ فَأُبْسِطُ لَهُ فِي الرِّزْقِ وَأُزْوِي عَنْهُ الْبَلَاءُ فَأُجْزِيَهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُلْقَانِي فَأُجْزِيَهُ بِسَيِّئَاتِهِ».

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَفْرَضُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الْأَذَى؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ»^(٣)، يعني أن جميع

(١) صحيح: حديث خباب بن الارت: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه. تقدم. [البخاري: ٣٦١٢].

(٢) ضعيف: حديث أنس «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ صَبًّا». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخرصر منه دون قوله «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ... إِلَى آخِرِهِ» وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٨٦].

(٣) صحيح: حديث لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية! فقال رسول الله ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَفْرَضُ؟».

ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك.

وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِذْرَاجٌ ثُمَّ قَرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]»^(١) يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤] أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلّمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي فأخبره، فقال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا»^(٢)، وقال علي كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جَزَعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَزَعَةٍ غَيِظَ رَدَّهَا بِحِلْمٍ، وَجَزَعَةٍ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا. وَلَا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمَ أَهْرِيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قَطْرَةٌ دَمَعَتْ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ. وَمَا خَطَا عَبْدٌ خُطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خُطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ، وَخُطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الرَّحْمِ»^(٣).

من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه. قال: وليس له إسناده صحيح. وقال الدارقطني: وروى أيضاً من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فيها شيء يثبت. [الترمذي: ٣٠٣٩ م وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٣٠].

(١) صحيح: حديث عقبة بن عامر «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِذْرَاجٌ، ثُمَّ قَرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]». رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن. [أحمد: ١٦٨٦٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ٤١٣].

(٢) صحيح: حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط. أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً. ووصله الطبراني أيضاً من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي. [أحمد: ١٦٣٤٦، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٢٢٠].

(٣) حديث أنس «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جَزَعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَزَعَةٍ غَيِظَ رَدَّهَا بِحِلْمٍ، وَجَزَعَةٍ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا». أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجزعتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي (١) منكر الحديث. وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد: «مَا مِنْ جَزَعَةٍ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جَزَعَةٍ غَيِظَ كَلِمَتُهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ». [ابن ماجه: ٤١٨٩، وانظر صحيح الترغيب: ٢٧٥٢، وقال الألباني: صحيح لغيره] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة «مَا قَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ دَمِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قَطْرَةٌ دَمَعَتْ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ... الحديث» وفيه محمد بن صدقة، وهو الفدكي: منكر الحديث.

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً فاتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذراً فلما استحصد مر به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لا بد للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك.

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض، فقال: يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك، فقال يا أبت، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه ابنة له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه؛ فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا عنه هذه.

وقال بعض العلماء: إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب.

وقال الفضيل: إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير. وقال حاتم الأصم: إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بالمسيح، وعلى العبيد بـيوسف، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم.

وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك، فجاء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا، فأمن منه أنه؛ فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة، فعرض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين.

وقال أبو السعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدرًا فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه عز وجل.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء، فإذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وقال الأحنف بن قيس: أصبحت يومًا أشتكي ضرسي، فقلت لعمي: ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثاً، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام: «إذا نزلت بك

بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلي كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك» نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة.
بيات فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول: لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة^(١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»^(٢)، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها^(٣). وقال علي كرم الله وجهه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ فَاسْأَلَهُ الْعَافِيَةَ»^(٤).

وروي الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَّا الْيَقِينَ»^(٥)، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن.

وقال الحسن رحمه الله: الخير الذي لا شر فيه: العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر.
وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلي فأصبر.

(١) ضعيف: حديث: أنه ﷺ كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة. رواه أحمد من حديث بشر بن أبي أرمطة بلفظ «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» [أحمد: ١٧١٧٦، وانظر السلسلة الضعيفة: ٢٩٠٧] وإسناده جيد. ولأبي داود من حديث عائشة «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة» [أبي داود: ٥٠٨٥، وانظر المشكاة: ١٢١٦، وقال الألباني: ضعيف] وفيه بقية وهو مدلس، ورواه بالنعنة.
(٢) حديث: كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: «اللهم آتنا في الدنيا...» الحديث [البخاري: ٦٣٨٩، ومسلم: ٢٦٩٠] ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما بين الركنين «ربنا آتنا...» [أبي داود: ١٨٩٢ وانظر صحيح أبي داود، وحسنه الألباني] الحديث.

(٣) صحيح: حديث: كان يستعيز من شماتة الأعداء. [البخاري: ٦٣٤٧، ومسلم: ٢٧٠٧ عن أبي هريرة]. تقدم في الدعوات.

(٤) ضعيف: حديث قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «قد سألت الله البلاء فسله العافية» [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر ضعيف الترمذي]. رواه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه، ولم يسم عليا وإنما قال: سمع رجلا. وله للنسائي في اليوم والليلة من حديث علي: كنت ساكنا فمري رسول الله ﷺ وأنا أقول... الحديث. وفيه: «فإن كان بلاء فصبرني» [الترمذي: ٣٥٦٤، وانظر ضعيف الترمذي]، فضربه برجله وقال «اللهم عافه واشفه» وقال حسن صحيح.

(٥) حسن صحيح: حديث أبي بكر الصديق «سلوا الله العافية». أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد، وقد تقدم. [الترمذي: ٣٥٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٨٧، ولم أره عند ابن ماجه].

وقال ﷺ في دعائه: «وَعَافَيْتَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ»^(١).

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر. فإن قلت: فقد قال بعضهم: أود أن أكون جسراً على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار. وقال سمنون رحمه الله تعالى:

ليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختربرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلي بعد هذا البيت بعلقة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب، وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حباً لمثل ذلك، فمن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه، كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرًا لبطن لفعلة لأجلك؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضًا محال، ومعناه أنني أريد ما لا يريد، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يردّه، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين.

أحدهما: أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسينة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهمًا في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال.

الثاني: أن يصير رضاه عنده مطلوبًا من حيث إنه رضاه فقط، ويكون له لذة في استشهاده

(١) ضعيف: حديث «وعافيتك أحب إلي». ذكره ابن إسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ «وعافيتك أوسع لي» وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلًا، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندًا وفيه من يجهل. [انظر ضعيف الجامع: ١١٨٢].

رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا، فهؤلاء إذا قدرُوا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت، وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال؟ هذا فيه نظر، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المانّ بفضلِهِ على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيانات الأفضل من الصبر والسَّكْر:

اعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصمت أفضل من الشكر. وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: هما سيان. وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول: في بيان ذلك مقامان.

المقام الأول: البيان على سبيل التساهل: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمد به الوعاظ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام لإصلاحهم، والظن المشفق لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات، بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله ﷺ: «مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ»^(١)، وفي الخبر: «يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَجْزِيهِ اللَّهُ جِزَاءَ الشَّاكِرِينَ، وَيُؤْتَى بِأَصْبَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَقَالُ لَهُ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ يَجْزِيكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ، فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَلَّا، أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ فَشَكَرَ وَابْتَلَيْتَكَ فَصَبَرْتَ، لِأَضْعَفِنَ لَكَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ، فَيُعْطَى أَضْعَافُ جِزَاءِ الشَّاكِرِينَ»^(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأما قوله ﷺ: «الطَّاعِمُ

(١) حديث «من أفضل ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر». تقدم.

(٢) حديث: يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَجْزِيهِ اللَّهُ جِزَاءَ الشَّاكِرِينَ، وَيُؤْتَى بِأَصْبَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ. لم أجد له أصلاً.

الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(١)، فهو دليل على أنَّ الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: «الْجُمُعَةُ حَجُّ الْمَسَاكِينِ وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ»^(٢)، وكقوله ﷺ: «شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوثنِ»^(٣)، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله ﷺ: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ» لا يدل على أنَّ الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام: «الصُّومُ نِصْفُ الصَّبْرِ» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفًا وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل، فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنَّ العمل يساوي العلم.

وفي الخبر عن النبي ﷺ: «آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ دُخُولُ الْجَنَّةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانٍ مُلْكِهِ. وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولُ الْجَنَّةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانٍ غَنَاهُ»^(٤)، وفي خبر آخر: «يَدْخُلُ سُلَيْمَانَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا»^(٥)، وفي الخبر: «أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَمَامَهُمْ أُتُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٦).

- (١) صحيح: حديث «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٤٨٦، وابن ماجه: ١٧٦٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٦٥٥].
- (٢) ضعيف: حديث «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل». أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف، [انظر ضعيف الجامع: ٢٦٥٩]، والطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: طاعة أزواجهن. وفي رواية: ما جزاء غزوة المرأة؟ قال طاعة الزوج... الحديث وفيه القاسم بن فياض، وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات، [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٤٠].
- (٣) صحيح: حديث «شارب الخمر كعابد الوثن». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «مدمن الخمر» ورواه بلفظ «شارب» الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدي: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني، [ابن ماجه: ٣٣٧٥، وانظر صحيح الجامع: ٥٨٦١].
- (٤) حديث «آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخول الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل «يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما» وقال: لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة. وروى البزار من حديث أنس «أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف» وفيه أغلب بن تميم ضعيف.
- (٥) حديث «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا». تقدم حديث معاذ قبله. ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك، ودينار الحيشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر.
- (٦) حديث «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد». لم أجد له أصلا ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة «والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى»، [البخاري: ٤٧١٢، ومسلم: ١٩٤]، من حديث أبي هريرة، ولم أقف عليه من حديث أنس وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان: «ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»، [مسلم: ٢٩٦٧]، ولم أقف عليه عند مسلم.

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأن الصبر حال الفقير، والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

المقام الثاني : هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان.

والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة: علوم، وأحوال، وأعمال، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها ببعض لآخر للنظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل: وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه.

وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل؛ وإلا فالعلم القاصر بالعلم ليس بأفضل من العمل القاصر؛ فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته، وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها.

وكل ما عداها من المعارف عبید وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها. ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى: فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل.

وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق، فإذا فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في

إصلاح القلب وتطهيره، وإعداد له علوم المكاشفة، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه.

واسم الأول المعصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأن الحج أفضل من الصدقة، وأن قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، أو منعه الشيع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المدير إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشيع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشح المطاع من جملة المهلكات، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لا يزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدق بما معه، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه؛ فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ، إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتماعا فليُنظر إلى الأغلب؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان، وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر؟ لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً، نعم لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء، لأن السكنجبين مراد له، وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لا محالة، فإذا في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب، ويتهى القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل.

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقال تعالى: ﴿وَيَأْخُذْ الصَّدَقَاتِ﴾

[التوبة: ١٠٤] فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، ولو ذكر له لا يصدق به.

والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص، حتى يستحته فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول: من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعد على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمر فيقول: ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدّر عليه دون تكليفي به، وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مديراً محروماً من حيث لا يدري، وقد انخدع بمثل هذا الخياط طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا، فأني معنى لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم، كما قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل: ﴿يُنْزِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] فهو لاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى، ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا: هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق، فإذا هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مهلك لك فهو كالبحام يستخرج الدم منك

ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك، فالحجاء خادم لك لا أنت خادم للحجاء. ولا يخرج الحجاء عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم، ولما كانت الصدقات مطهرة للبوطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ من أخذها وانتهى عنها^(١)، كما نهى عن كسب الحجاء وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها^(٢)، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف، ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال، أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر: أن يرى نعمة العيين مثلًا من الله تعالى. ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب.

وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد، فكيف يفضل الشيء على نفسه؛ فإذا مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإن الأعمى كفي الصبر عن

(١) صحيح: حديث النهي عن كسب الحجاء، تقدم، [مسلم: ١٥٦٨].

(٢) صحيح: حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها. أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة «إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» وفي رواية له «أوساخ الناس»، [مسلم: ١٠٧٢].

الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً لنعمة العينين؛ وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين؛ فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً، وكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جداً؛ لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات، أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أعضائها، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر هاهنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر الله تعالى، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة، والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بدّ من قوة في الصبر عن الحرام أيضاً، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها، فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر: أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرط الغنى

يصحبه فيما عليه أشياء ثلاث صفته وتمتعها وتلذذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء ثلاث صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي ألم صفته وأزعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها.

والأمر على ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يرد سواه.

ويقال: كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول: دعوة الجنيد أصابني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر.

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عبادته، فهذا أفضل من الفقير الصابر. فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر؛ فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق؟

فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً.

وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيداً عنده، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيدة.

وقد كان مؤلماً له أولاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية - بل قيل البداية بكثير - كالصبيان، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام؛ فإذا أردت التحقيق ففصل، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو مقام وراء

الصبر، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا أَلَم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإنَّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف مستره شكر، والاعتراض بأنَّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأنَّ الشكر أيضًا نعمة من نعم الله موهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(١)، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة، وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغیرها شكر.

وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها؛ وهي درجات مختلفة؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني؛ فاتفق أنها زوجت مني، فليلة زفافها قلت: تعالي حتى نحیی هذه الليلة شكرًا لله تعالي على ما جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فصلينا طول الليل، فمئذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كقولك يا فلانة؟ قالت العجوز: هو كما يقول الشيخ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقه أن لو لم يجمع الله بينهما، وأنسب صبر الفرقه إلى شكر الوصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أنَّ هذا الشكر أفضل؛ فإذا لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق. والله أعلم.

* * *

(١) حسن صحيح: حديث «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». تقدم في الزكاة، [الترمذي: ١٩٥٥]، وانظر صحيح الترمذي: ٩٧٦.